العرب والمباحث السيميائية في معضلة الإصلاح

Arabs and Semiotic Research: Etymology Count

أ. م. د. أحمد القاسمي
جامعة منوبة . كلية الاداب والفنون
تونس

Asst. Prof. Dr. Ahmed AL-Qasimi
College of Literature and Arts
University of Manuba
TUNIS

خضع البحث لبرنامج الاستلال العلمي

Turnitin - passed research

من البحوث المشاركة في

مؤتمر العميد العلمي العالمي الثاني

المنعقد تحت شعار

نلتقي في رحاب العميد لنرتقي

وبعنوان

إدارة أزمة المصطلح من الخلاف إلى الاختلاف

للمدة من ٩-١١ تشرين الأول ٢٠١٤م

برعاية العتبة العباسية المقدسة

A research paper taken from

Al-Ameed Journal Second Global Academic Conference under

the Auspices of General Secretariat

of Holy Al-Abbas Shrine

held as of 09 to 11 -10- 2014

Under the slogan

Under the Shade of Al-Ameed

We Do Meet to Augment

Discource Juncture Management from

Dissention to Alterity

ملخص البحث

تنتشر البحوث السّيميائية على أيامنا، انتشارا متسارعا -بحثا وتأليفا- وتعريبا. فتجذب إليها اهتمام الباحثين العرب حتى تكاد تصرفهم عن كل منهج سواها. ومع أنّ هذا الانصراف لا يخلو أحيانا من تكلّف فإن الدرس السيميائي العربيّ عامّة يبدو جادّا في تقديم نفسه، باعتباره علما من العلوم الإنسانية الحديثة ومنهج مقاربة للظواهر الأدبيّة والفنيّة والثقافيّة في آن.

وتتجلّى جدِّيته في عمق وعيه بتوسّط العلامة بين الإنسان والوجود ذلك المسترسل (continuum) الممتنع عن الإحاطة المقاوم للحدّ، وفي جعل أنساقها آلية تأويل للنّصوص والفنون بل آلية تأويل للعالم وفهمه. ولكن على ما في الدّرس السيميائيّ العربي من آفاق مغرية يعاني راهنه من معضلات جمّة.

ولعلّ مشكلة المصطلح أن تظل عنوانها الرئيس وبابها الذي نعبر منه إلى مختلف تفريعاتها وإن تباينت قضاياها. ومن هذا الباب كان مدخل ورقتنا الموسوم بـ (العرب والمباحث السّيميائية: في معضلة الاصطلاح) والتي نقترحها ضمن المحور الثاني لمؤتمركم (إدارة أزمة المصطلح من الخلاف إلى الاختلاف) [المصطلح اللساني والأدبي] وإن كنّا لا ننفي صلتها بالمحور الثالث من هذا المؤتمر [المصطلح الاجتماعي والفلسفي]. ومدارها على رصد ارتباك مباحثنا السّيميائية العربيّة عند تعريب المصطلح ارتباكا يحول دون توحيده ويعسّر تمثّل المفاهيم القائمة طيّه. فالزوج الاصطلاحي (Sémiologie/ Sémiotique) على سبيل المثال يعرب عندنا بـ:

السّيميائية والسيمياء والسيميائيات والسيميولوجيا والسيميوطيقا والسيميوتيكا وعلم الدلائل وعلم العلامات والدلائليّة والعلاميّة.

والحال أن الاصطلاح يقتضي الضبط الدقيق الصّارم. وكثيرا ما تجاوز الأمر معضلة الاصطلاح إلى الخلط بين السيميائيات وعلوم أخرى مجاورة كاللسانيات والبحوث الأنثروبولوجية والدراسات الأبستمولوجية. ونقدّر أنّ ذلك راجع إلى عسر في رسم الحدود بينها. وليس الاختلاف في الاصطلاح غير طبقة سطحيّة يكشف الحفر فيها عن تباين في تمثّل منطلقات المباحث السّيميائية -في حاضنتها الغربيّة- المنهجية والفكريّة تبايناً يصل حدَّ الخصومات والتعصب والحماسة المنافية لروح العلم وصرامة البحث.

وبناء على ما تقدّم تعمل ورقتنا هذه على تقصيّ إشكاليّة الاصطلاح في الدرس السيميائي. فتضبطها من وجهين: مدار أوّلها على رصد هذا الخلط والبحث في أسبابه ومدار ثانيهما على تجاوز ما تقدّر أنه من الهنات إلى تعاطٍ إيجابي ينشد الإفادة والتعمّق في البحث والتّثاقف المنتج. ولا يتسنى ذلك في تقديرنا إلاّ من خلال تحقيب منجز الدّرس السيميائي عامّة وتصنيف البحث فيه إلى مدارس ورؤى ومناهج، ومن خلال العمل على تمثّله وفق رؤية شمولية تتفهّم خلفياته وتطوع منجزه حتى يكون أداة ناجعة لفهم النصوص وظواهر الخطابات وللخوض في مسارب معانيها.

ولئن اشتملت ورقتنا عرضا لمنجز العرب قديما أو اشتملت على بعض من بواكير هذا العلم عند الغرب فإنها لا تذكّر بشيء من الماضي إلا لترصد التّحول الكبير الذي طرأ على الدرس السيميائي حديثا حتى غدا منهج بحث وأداة استنطاق للنصوص وخوض في احتمالات معانيها. وليس التّحقيب عندنا عرضا خطيّا يوثّق منجز هذه المباحث زمانيّا -فمقامنا لا يحتمل المسعى- وإنما وسيلة مساعدة لرصد

سيرورة طائفة من المفاهيم السّيميائية وما طرأ عليها من القطائع الإبيستمولوجيّة وقوفا على ديناميتها وتحولاتها. وما تصنيف البحث في هذا العلم إلى أصول وفروع (سيميائيات عامة وأخرى خصوصيّة وثالثة تطبيقيّة..) ومدارس (مدرسة باريس، المدرسة الأمريكيّة، المدرسة السوفياتيّة، مدرسة براغ) واتجاهات (السيميائيات البنيويّة/ ما بعد البنيويّة تفرّع بدورها إلى سيميائيّات التواصل، سيميائيّات الدلالة، سيميائيات الأنساق الثقافيّة) سوى سبيل آخر لتمثّل هذا المنجز وفق رؤية تأليفيّة تسعى إلى الكليّات والأنساق النّاظمة.

نصدر في عملنا إذن من أطروحة تقول بوجوب توحيد المصطلحات متى اتفقت مفاهيمها وتقدّر أنّ المباحث السّيميائية وإن تعددت مشاربها تلتقي في عملها على ضبط النّظم السّيميائية وأنساق العلامات وفي اعتمادها لسبر أغوار احتمالات معنى النصوص والخطابات والظواهر الثقافيّة. ونخلص إلى أنّ المصطلحات السّيميائية قائمة على مفاهيم متحوّلة في الزمن متحرّكة في الفكر (خلفيات فلسفية أو منطقية أو لسانيّة) وأنّ سبيلنا إلى الإفادة من هذا الدرس رهين وعينا بالخلفيات الفكرية والجماليّة التي تقوم عليها المدارس والاتجاهات السّيميائية حتى نتبيّن حركيّة الفكر وديناميته من جهة وحتى نجنّب مباحثنا نزعة التعصّب إلى مدرسة دون غيرها ونعصم أعمالنا من الجمع بين مرجعيات متباعدة متناقضة أحيانا.

ABSTRACT

Semiotic research papers take a crestive evolution in the orbit of searching, editing and Arabizing that leads to attract the heed of the Arab researchers, to the extent it might turn the prow of their focus. Such a propensity could be regarded as ostensible in time, the Arabic semiotic lesson emerges as salient, as a science from the modern humanist sciences and as a system of cultural, artistic and literary reflection at one time.

Consequently, the present paper is to trace the discourse controversy in the semiotic lesson via two axes: it is to investigate the acts of mixture and to delve into its reasons; it is to wield the defects dealt with as positive purporting usefulness, research depth and productive erudition.

To conclude, the semiotic terms depend upon changeable concepts in a changeable time in thought; linguistic or logical or philosophical backgrounds. No way to exploit such a lesson unless there is cognizance of the aesthetic and intellectual backgrounds the semiotic trends and schools rely on to perceive the thought flexibility and dynamicity on one hand, to shield the paper from the prejudice to a school not to another one and to avert our project from dovetailing divergent contradicted backgrounds on the other hand.

... المدخل ...

من بديهيات منجز الدرس اللّساني أنّ وظائف اللّغة لا تتحقّق، نظرا للعلاقة الاعتباطيّة بين الدّوال والمدلولات، إلاّ من خلال تواضع المستعملين على روابط معنوية بينها. وبقدر ما يكون هذا التّواضع تلقائيا في حال اللّغة الطّبيعيّة يبادر بخلقه الأفراد يكون مصطنعا ناجما عن عمل الرّويّة والفكر في حال لغة العلوم تتولاّه المؤسسات أو تصادق عليه وتسلّم به أو تراجعه وتعدّل منه.

فإذاً الاتفاق في هذه الحالة اصطلاح مضاعف على عبارة المسدي، يصطفي من الحقول المجاورة أو القريبة مفردات بعينها فيضفي عليها بعدا موضوعيّا يعبُر بها من الإحالة على الأشياء في العالم إلى الإحالة على المفاهيم والنظريات في الفكر. ويجعلها أيسر استعمالا وأوضح ويمنحها كفاءة تربطها بحقول معرفيّة دقيقة ومن ثمة مأتى المعاجم العلمية المختصة كمعاجم علم النفس أو الفلسفة أو الفيزياء.

وهذا ما ييسّر ارتحال المصطلحات في الزّمن خزّانا للأفكار وحاملا ينقلها عبر الأحقاب الزمنيّة أو يعبر الأفضية فيأخذها من مجموعة ثقافيّة إلى أخرى. ويمنحها مقوّمات كونيّة تنسحب على مختلف الحقول المعرفيّة تجعلها أرقى من لغة الأعراق والقوميات. فيدعّم حضورها جودتها ويرفع من درجة كفاءتها فيما يؤشر افتقارها على معضلة مّا في أجهزتها أو في المؤسسات المنتجة لها أو الوسائط التي تتوسّلها للعبور من مجال إلى آخر.

١) السّيميائيات عينة لبحث أزمة المصطلح عندنا

لا شكّ أنّ الإشارة إلى معايير تقيس جودة التحصيل في حقل من الحقول المعرفيّة أو لدى مجموعة ثقافيّة أن يحرّك هواجس كامنة فينا هي وجوه التحصيل المعرفي في عالمنا العربيّ على أيامنا هذه. فتبسط –فيما تبسط– إشكاليّة المصطلح عندنا وتخوض في ما يثير من القضايا.

وخلافا للمباحث النظريّة المتعاليّة –على أهميتها وعلى الحاجة الشّديدة إليها– آثرنا بسط المشكلة من خلال بحث ميداني يتناول عيّنة بالدرس والاختبار والتقييم. فقد وجدنا أنّ البحوث السّيميائية تنتشر في أيامنا، انتشارا متسارعا –بحثا وتأليفا– وتعريبا. فتجذب إليها اهتمام الباحثين العرب حتى تكاد تصرفهم عن كل منهج سواها. ووجدنا الدرس السيميائي العربيّ عامّة جادّا في تقديم نفسه علما من العلوم الإنسانية الحديثة ومنهج مقاربة للظواهر الأدبيّة والفنيّة والثقافيّة في آن. وتتجلّى جديته في عمق وعيه بتوسّط العلامة بين الإنسان والوجود ذلك المسترسل (continuum) الممتنع عن الإحاطة المقاوم للحدّ، وفي جعل أنساقها آلية تأويل للنّصوص والفنون بل آلية تأويل للعالم وفهمه. وبالمقابل وعلى آفاقه المغرية ألفيناه يعاني من معضلات جمّة.

ولعلّ مشكلة المصطلح أن تظل عنوانها الرئيس وبابها الذي نعبر منه إلى مختلف تفريعاتها وإن تباينت قضاياها. فنتقصّى هذه المعضلة، ونرصد مظاهرها ونعمل على تجاوز هناتها إلى تعاطٍ إيجابي ينشد التّثاقف المنتج، يحقّب منجز الدّرس السيميائي عامّة ويصنّف البحث فيه إلى مدارس ورؤى ومناهج حتى نتمثّله وفق رؤية شمولية تتفهّم خلفياته وتطوع منجزه أداةً ناجعة لفهم النّصوص والظّواهر وللخوض في مسارب معانيها.

وليس التّحقيب عندنا عرضا خطيّا يوثّق منجز هذه المباحث زمانيّا –فمقامنا لا يحتمل المسعى– وإنما وسيلة مساعدة لرصد سيرورة طائفة من المفاهيم السّيميائية وما طرأ عليها من القطائع الإبيستمولوجيّة وقوفا على ديناميتها وتحوّلاتها.

٢) اصطلاح فوضوي ومباحث عشوائيّة: تشخيص أوّلي

لقد خالطت المباحث السّيميائية العربيّة فوضى اصطلاحيّة مربكة عابرة لمختلف اتجاهاتها فكانت تحول دون الدّارس وبناء المعرفة الدّقيقة بقدر ما تحول دون انفتاح هذه المباحث نفسها بعضها على بعض جدلا وتفاعلا وتحقيقا للتّراكم المعرفي. ولعلّ الكمّ الفظيع من المقترحات التي دفعت بها هذه المباحث تعريبا للزّوج الاصطلاحي (sémiologie - sémiotique) أن يكفينا عناء الاستدلال عن وجاهة ما نقدّر. فقد رصدنا طيها ما لا يقلّ عن خمسة عشر اقتراحا هيّ السّيميائية والسّيمياء والسّيميائيات والسّيميولوجيا والسّيميوطيقا والسّيميوتيكا وعلم الدّلائل وعلم العلامات والدّلائليّة والعلاميّة والسّيميّة والرّموزية والعلاماتيّة والسّيمياءوية والأعراضيّة.

ومن الطّبيعي أن يتوسّع الاختلاف بتفرّع علومها سواء تعلّق الأمر بالاصطلاح أم بما يحيل عليه المصطلح من مفاهيم. فقد عدنا إلى روّاد البحث ضمن السّيميائيات العامّة لنتبيّن تعريبهم لمستويات العلامة عند بيرس الثّلاث Représentamen (Re)) (Objets (O) Interprétant (I-(-) كما عدنا إلى أعلام السّيميائيات التّطبيقيّة لنسبر فهمهم لمصطلح المربع السّيميائي مصطلح (Le carré sémiotique) عند قريماس فصادقت النّتائج على ما نزعم. فيكشف الجدول الذي نورد في الهامش مدى التّباعد بين ما يقترحه هؤلاء الرّواد[1].

ولئن صرفنا وجهتنا إلى مستوى التّطبيق واستدعينا مصطلح (Le carré sémiotique)[٢] فلنبيّن أنّ الأمر يتجاوز الاصطلاح إلى تمثّل المفاهيم فقد كان إجراؤهم له درجات متفاوتة من التّمثل ومن القدرة على الاختزال[٣].

لقد تعدّدت معضلات الجهاز المصطلحي حتى باتت قابلة للتّصنيف والتّفريع والتّبويب. فمنها ما يتعلّق بنحت المصطلح نفسه وقد كشفت قائمة مقترحات تعريب الزّوج (sémiologie - sémiotique) التي عرضنا، اتجاهات مختلفة في نحته بين تعريب صوتي يحاكي الأصل الغربي (السّيميولوجيا، السّيميوتيكا، السّيميوطيقا) واشتقاق من أصول عربية مفردة حينا [السّيميائية والعلاميّة والسّيميّة] ومجموعة حينا آخر[السّيميائيات، الدّلائليّة، الرّموزية، العلاماتيّة..] وتستمدّ من الأسماء حينا ومن النّسبة حينا آخر[العلامية والسمياءوية] فتكون هذه الأسماء مفردة عند بعضهم مركّبة عند شقّ آخر [علم الدلائل وعلم العلامات].

والحاصل عسر في الاشتقاق من بعض المقترحات أو في نسبتها وتباعد بين دلالتها المعجمية في أصل اللّغة العربية ودلالتها المصطلحية وصعوبة في الكتابة بلغة علميّة مفهوميّة تختزل المعارف وتذلّلها للمتقبّل. والحال أن الاصطلاح يقتضي الضّبط الدّقيق الصّارم. وكثيرا ما تجاوز الأمر معضلة الاصطلاح في هذا العلم إلى الخلط بين السيميائيات وعلوم أخرى مجاورة كاللّسانيات والبحوث الأنثروبولوجية والدّراسات الأبستمولوجية. فيجعل الحدود بينها مائعة رخوة.

على أنّ الحفر في هذه الطّبقة السّطحيّة يكشف عن أخرى أكثر تعقيدا. مدارها خاصة على اعتماد هذه المباحث السّيميائية – في الحاضنة الغربيّة – للمصطلحات نفسها ضمن منطلقات منهجية وفكريّة مختلفة متباينة تباينا يصل حد الخصومات والتعصّب والحماسة المنافية لروح العلم وصرامة البحث. وهذا ما لا تنتبه عليه

الكتابات العربيّة غالبا. فتنقل المصطلح من نسق ناظم إلى نسق آخر وهي تطمئن إلى أنّ حميله يظل هو نفسه. ويحصل الخلط في الاتجاه المقابل أحيانا أخرى فينساق الأثر إلى عرض المفاهيم نفسها وفق اصطلاحات مختلفة بوعي حينا يكشف عنه الباحث ويشير إلى أن أمانة البحث تقتضيه وبدون وعي حيناً آخر فيعرض المقترحات المختلفة للمصطلح نفسه والمفهوم نفسه في المنشأ الغربي ويظنّ واهما أنه يقارب مستويات مختلفة للمسألة ويقلّب وجوها متباينة منها(٤). على أنّ هذا الإشكال يتعّمق أكثر كلّما دقّ الاختصاص من ناحية وانفتح على حقول أخرى من ناحية ثانية.. فالمعارف السيميائية أضحت عابرة للاختصاصات تتقاطع مع الحقول الفنية والتّقنية المختلفة وتفيد من الإنسانيات والفلسفة بقدر ما تفيد من المنطق والرّياضيات. فلا يجدي معه حذر الباحث لتجاوز دائرة فعل الأفراد إلى ما يعهد للمؤسّسات.

ولعلّنا أن نعرض ما يواجه الباحث العربي الذي يحاول أن يفيد من منجز ديلوز الغزير مثالا على ذلك. فقد فتح مقاربات بيرس المنطقيّة حول العلامات على التّقني السّينمائي والعلوم العصبيّة والنّفسية والفنون التّشكيليّة وجعل قراءة الأثر السينمائي عملا تأويليّا يفيد من هذه المقاربات والمناهج ليحفر في احتمالات المعنى ويلاحق ما كان منها كامنا منفلتا عن وعي المبدع نفسه.

تمثّل دراسة ديلوز لآليات إنتاج المعنى في الصورة حركةً نموذجا للعبور المعارف السيميائية للاختصاصات فينفتح على تكوين الصّورة تقنيّا وتشكيلها بصريّا وما تقدّم للإدراك من وضعيات حسيّة حركيّة في السّينما الكلاسيكيّة ومن شفافيّة تهمّش الحبكة القصّصية حيناً آخر وتعطّل تدفّق الزّمن في سينما الحداثة فإذا بها تعتمد الصّورة زمنا وتحيل على المبتذل واليوميّ وعلى الأحلام أو الهلوسات بعد أن كانت مؤشرات. وإذا اللّقطة تتمطّط عبر الصّمت والفراغ فتستبطن الشّخصيّة

أكثر مما تحيل على العالم الخارجيّ. لذلك تتفاعل المصطلحات المتباعدة مثل مصطلح (Plan en amorce) ذي البعد التّقنيّ مع اصطلاح es situations sensori-motrices ذي الخلفيّة العصبيّة ومع اصطلاح (Les temps morts) ذي الخلفيّة التّشكيليّة ضمن أفق سيميائي منسجم[٥] يجسّد ما يميّز الفيلسوف من عمق في التّناول ومن معارف موسوعيّة بقدر ما يجسّد تراكم المعارف في الثّقافة الغربيّة فديلوز كان يشيّد معالم عملاقة على قواعد صلبة يعود الفضل في تثبيت دعائمها إلى مؤسّسات المجتمع القائمة وإلى ترسّخ مفهوم التّراكم المعرفي. وهذا ما لا تسعف به مؤسساتنا البحثيّة ولا تقاليد البحث عندنا. فقد دأبت النّدوات العلميّة على الإشارة إلى معضلات المصطلح في مختلف حقولنا المعرفيّة فإذا بها تعيد التّشخيص نفسه وإذا منجزنا يقع في الأخطاء نفسها ويواجه المعضلات ذاتها.

تدفعنا هذه المعطيات إذن إلى محاولة عرض الاتجاهات الكبرى للمعارف السيميائيّة لا لنذلل المعرفة للمتقبّل ولا لنؤرخ لها فهذه المعارف غدت مبذولة في متون أخرى تتدبرها بتؤدة وصبر لا يسعف بهما سياقنا، ولكن لنبحث عن رؤية شموليّة تتقصّى ما شهدته مصطلحاتها الأساسية من الانعطافات والمنعرجات جعلت خلفياتها تتباين واتجاهاتها تتشعّب. فقد وجدنا باحثينا يتقبّلون المعارف السّيميائية باعتبارها منجزا ثابتا مكتملا لا باعتبارها سيرورة تتأثّر بالمعارف القائمة وتتفاعل معها وتعمل باستمرار على تجاوز أخطائها وعلى تعميق أجوبتها.

٣. مصطلح السّيميائيات: في سيرورة المفهوم وتطوّره

٣. ١. بحث في الأصول[٦]

التّصور الثّنائي للعلامة: منجز دي سوسير

ينطلق دي سوسير من رؤية تجعل اللّغة الطّبيعيّة نسقا تواصليّا من بين مجموعة من الأنساق المماثلة[٧]، وإن فاقها جميعا أهمية. فالتّواصل لا يتمّ باللّسان وحده وإنما ترتبط الأنساق المكوّنة للّغة بعلاقات بالغة التّعقيد منها العلامة البصريّة المختلفة جوهريا عن العلامة اللّسانية. ومكمن اختلافها عن النّسق اللّساني قيامها على أبعاد عدّة في الآن نفسه. فلئن جعلت الخطيّة الزّمانية العلامة اللّسانية ذات بعد واحد[٨]، كانت للعلامات غير اللّسانية أبعاد فضائيّة توازي البعد الزمني ومنها اكتسبت طرقا مخصوصة لإنتاج الدّلالة. وهذا ما دعاه إلى القول بضرورة قيام علم يوحّد هذه الأنساق ويقاربها بما هي أشكال تواصلية ودلالية ويقترح السّيميولوجيا مصطلحا له[٩].

ينتهي دي سوسير إلى أن المفهوم الذي يُحضر الكائنات إلى اللّغة تصوّر نفسي يتحقّق عبر سيرورة بالغة التّعقيد. وإن كان اللّسان في استجابة مستمرّة لحاجات التّجربة الواقعيّة فإنه يظل منفصلا عنها فاعلا فيها في آن باعتبار أنه مؤسسة اجتماعية كسائر المؤسّسات التي يبتكرها المجتمع. وينطلق من نقد الفكرة القائلة بوجود قائمة من الكلمات موافقة لعدد مماثل من الأشياء لأن مثل هذه المصادرة تقتضي وجود أفكار جاهزة سابقة لوجود الكلمات. فيرى أن العلامة اللّغوية تجمع «بين متصوّر ذهني وصورة أكوستيكية وليست الصّورة الأكوستيكية هي الصّوت المادي أي ذلك الأمر الفيزيائي المحض بل هي الأثر النّفسي لهذا الصّوت»[١٠]. وعن هذه

الصّورة الذّهنية ينتج الدّال وينتج عن الثّانية المدلول «وهذان العنصران ملتحمان التحاما شديدا ويستدعي وجودهما وجود الآخر [كذا] على أن الرّابط الذي يجمع الدّال بالمدلول اعتباطي ويستثني من ذلك التّرميز فالرّمز يتميّز بكونه ليس دائما اعتباطيا تماما»(١١).

ولمّا كانت العلامة اللّغوية تقوم على التّعاقب اتصفت بالخطية فكانت سمتها المميّزة «فتأتي عناصرها الواحد تلو الآخر مكوّنة بذلك سلسلة(١٢) خلافا للدوال المرئية... التي تمثل تشعّبات متزامنة ذات أبعاد»(١٣). وبالجملة تعدّ نظرية دي سوسير نظرية ثنائية. فـ «هذا أمر مؤكد فكل تحليلات سوسير تحليلات ثنائية الفروع: دال (signifiant) / مدلول (signifié)، لسان (Langue) / كلام (Parole)، سانكروني (Synchronique) / دياكروني (Diachronique)... إن سيميولوجيا سوسير لكونها ترابطية، فهي ثنائية كما هو الحال في الفلسفة العقلانية التي مدت في عمرها النّزعة التّرابطية»(١٤).

يصادر منجز دي سوسير على أنّ السّيميولوجيا نظريّة عامة للعلامات عنها تتفرّع اللسانيات وإليها تنتسب. ولكن بارت الذي يمثّل امتدادا لفكر دي سوسير وقطيعة معه في الآن نفسه، يقلب هذه المعادلة من منطلق قناعة ترى أنّ الحياة الاجتماعيّة غير قابلة للتّحقق دون فكر تجسّمه العلامة اللغويّة، وأنّ مختلف الأنساق السّيميائيّة تظلّ صمّاء بكماء غير قادرة على الإبلاغ أو إنتاج الدّلالة دون وساطة اللّغة الطّبيعيّة، وإنّها لهذا كلّه تتفرّع عن اللّسانيات وتشتغل بقانونها.

وعليه استقى من قانون اللّسانيات البنيويّة(١٥) أربع ثنائيات كفيلة باختزال مختلف الأنساق النّاظمة للظّواهر السّيميولوجية على اختلافها هي اللّسان والكلام

(langue et parole) والمدلول والدّال (Signifié et signifiant) والمركّب والنّظام (Syntagme et système) والتّقرير والإيحاء (Dénotation et connotation).

لقد مكّن هذا التّقسيم الثّنائي للعلامة من القطع إبستيميا مع الرّأي القائل بأن اللّغة أداة محاكاة تعكس فيها الدّوال دلالة موجودة في الخارج مستقلة عنها سابقة لها. فإلى هذا التّقسيم وإلى القول باعتباطية اللّغة، يعود الفضل في تحويل الخطاب إلى مادة يمكن ملاحظتها علميا وقياسها بالمعايير التّجريبية. فتحوّل إرث دي سوسير إلى معين خصب منه تغتذي مناهج تحليل مختلف أنماط الخطاب. ولكن التّركيز على الأنساق الدّاخلية للأثر المدروس واختزال العلامة في بعدين هما الدّال والمدلول، بما يفيد التّغاضي عن المرجع وتهميش دوره في العملية التّواصلية، جعل اللّغة تحل محل البنيات الاقتصادية والظواهر الاجتماعية وأهمل دور منشئ الخطاب ومتلقيه في آن، وحول الرّسالة إلى نظام منغلق مكتف بنفسه لا يجوس خارجها. ولئن صدر بارت في عن أهمّ مقولات دي سوسير اللسانيّة فإنه فتح بالسّيميولوجيا على الأنساق الثّقافيّة المختلفة.

التّصور الثّلاثي للعلامة: منجز بيرس

اعتمد بيرس مصطلح السّيميوطيقا في دراسته للعلامة معمّقا صلتها بعمليّات الإدراك، وفق رؤية فينومينولوجيّة (Phénoménologique) ترى أنّ كلّ ما يأتيه الإنسان من أفعال وكلّ ما يحيط به من الأشياء إنّما هو تداخل لمستويات ثلاثة، يمثّل المستوى الأوّل منها عالم الإمكان وهو العالم من حولنا في شكل أحاسيس مفصولة عن كل سياق زمانيّا كان أو مكانيّا تشمل وجود الكائن بصرف النّظر عن علاقته بكائن آخر. ويشير إلى هذا المستوى بالمقولة الأوّلانيّة. فيتعلّق الأمر إذن بإمكانات محضّ معزولة عن كلّ سياق وهذا ما يمثّل مستوى الإمكان ويصطلح عليها بيرس

بالممثّل Représentamen Re أمّا ثاني المستويات فيتمثّل في تحقّق العالم من حولنا باعتباره وجودا فعليّا.

تتحقّق هذا الإمكانات إذن على مستوى الواقع وتتنزّل في فضاء وزمن محدّدين من الحياة الفعليّة الواقعيّة (أو المتصوّرة على مستوى الذهن في حالات أخرى). وتعرض العلامة إذن الكائن في صلته بعنصر آخر فتجسّد السّمة الفرديّة للأشياء. مواضيع Objets O مختلفة للعلامة. ويشكّل هذا المستوى منها المقولة الثّانيانيّة. ويمثّل المستوى الثالث عالم الواجبات بما هو قانون يختزل المعطى ويحرّره من ربق الحسيّة بأن يسند إليه بعدا مفهوميّا. ويضطلع بوساطة تجعل العنصر الأوّل والعنصر الثّاني في علاقة مّا.

ويجعل بيرس هذا المستوى المقولة الثّالثانيّة. وتتحقّق هذه المقولات وفق سيرورة يحيل بموجبها مستوى الإمكان على مستوى الوجود الذي يحيل بدوره على مستوى الواجبات فتتدرّج العلامة عندئذ من الاحتمال إلى التّحقّق إلى القانون(١٦). ويصدر بيرس في هذا التّصنيف عن رؤية فلسفيّة ترى التّجربة كلّها كيانا منظّما من خلال هذه المقولات الثّلاث المحدّدة لمسار إدراكي غير مرئي باعتبار أن العالم لا يُدرك بشكل مباشر وإنّما عبر وساطة العلامة، تلك الضرورة التي لا يمكن التّفكير خارجها. وما هذا سوى شبكة من العلامات غير المحدودة فكلّ ما فيه يشتغل من جهة النّظام ومن جهة الدّلالة، باعتباره علامة(١٧). فتتجسّد كليّة التّجربة الإنسانية بحيث يتحوّل كل عنصر داخل هذه العلامة بدوره –كلّما اقتضى الأمر– إلى علامة. وما ذلك إلا لكون العلاقة بين الإنسان ومحيطه محكومة بالوساطة.

ولا تحيل العلامة على موضوعها إلا من خلال مؤول (Interprétant)(١٨) وليس المؤول هو الشّخص الذي يقوم بتأويل العلامة. إنه التقرير الذي يتعيّن على

الطبيب المتمرّن عند تشخيصه لمرض أو المقالة التي يعدها النّاقد بعد مشاهدته للفيلم. ويتحوّل هذا المؤوّل إلى ممثّل لدى الطبيب المشرف في المستشفى الجامعي وإمكانيّة محض يتعيّن وصلها بحالة المريض أو الفيلم باعتبارهما موضوعين لهاتين العلامتين أمّا إحالة الطبيب الجامعي أو القارئ للممثّلين على موضوعهما هما مؤوّلان جديدان وهكذا.

تعرف نظريّة بيرس بأنها في الآن نفسه نظريّة عامة ثلاثيّة تداوليّة: فهي عامة لأنها تشمل مختلف مستويات الحياة العاطفيّ منها والذهنيّ والعمليّ وهي ثلاثيّة لأنها تشمل مستويات الوجود الثلاث (الأوّلاني والثّانياني والثّالثانيّ) ثمّ إنها تداوليّة لأنّها تضع في اعتبارها مقام العلامات من ناحية وفعلها في متقبّلها من ناحية ثانية. وبإجمال وبشيء من التّجني يبرره ما بين هذه المفاهيم من تباعد إبيستمولوجي، يمكننا أن نعتبر المؤول مقابلا لما يعدّه دي سوسير صورة ذهنية يربط بين شيء ما في المرجع (الموضوع) والممثّل باعتباره صورة صوتية (Image acoustique). «فالعلامة إذن علاقة ثلاثية. وثلاثية بيرس للعلامة لها أصل مزدوج وكانطي [كذا]. رياضي لأنه يستحيل تكوين ثلاثي أصيل دون أن يتم إدخال عنصر ما يختلف من حيث الطّبيعة عن الوحدة والزوج. وهكذا فالفعل المتلخّص في إعطاء (أ) ل (ب) هدية هي (س) هو علاقة ثلاثية. وبوصفه كذلك فإنه من غير الممكن تقليصه إلى توليف ثنائي العلاقة».(١٩)

إيكو ومهارة الجمع بين الاتجاهين

حتى يؤسس نظريّة متكاملة تدرس الأنظمة السّيميائيّة، يفيد إمبرتو إيكو إفادة بيّنة من منجز بيرس ودي سويسر معا، فضلا عن إفادته العميقة من التّراث

السيميائيّ. فيوائم بين الاتجاهين بكثير من المهارة، وإن وقع أحيانا ضحيّة لتناقضاتهما المنهجيّة.

ورغم تبنيه لمصادرات بارت التي تُكسب مختلف الظواهر الثقافية والأنساق البصريّة مفهوم النظام وتمنحها طابعا لفظيّا حتى تكون شكلا للفكر -بما يجعل من المبحث السّيميائي جزءا من اللسانيات- فإنه يجد تعريف دي سوسير الذي يجعل من السّيميولوجيا علما يدرس حياة العلامات في صلب الحياة الاجتماعيّة(٢٠) تعريفا ناقصا. ووجه اعتراض إمبرتو إيكو مداره على قول دي سوسير بكون العلامة ضربا من التّفاعل بين الدّال والمدلول وهذا خليق بأن يقصي من مجالها ظواهر عديدة تعدّ اليوم في صميم الدراسات السّيميوطيقيّة مثل نظريات الاتصال والموسيقى والسّيميوطيقا الحيوانيّة. وبالمقابل تمثّل سيميوطيقا بيرس المنطقيّة التي تقدّم نفسها على أنها قانون للعلامات بما يشدّها إلى التوليد السيميائي (sémiosis) فتفيد عملا أو تأثيرا على صلة بالموضوع وعمليّة تأويله مما يجعل العمليّة التّواصلية قائمة على مثير ومتأثر فلا تتمّ هذه العمليّة إلا من خلال وساطة طرف ثالث يمكننا أن نعتبره المُؤَوِّل الذي يخوّل للعلامة أن تعرض موضوعها للمرسل إليه.

والسّيميائيات بحسب إيكو هي البحث في كيفيّة اشتغال العلامة وكيفيّة تأويل متقبّلها لها ذلك التّخصص الذي يدرس حياة السّيميوزيس(٢١) أي عمليّة التوليد الدلالي كما يشخّصها بيرس والتي تنشأ عن نزعة الإنسان فطريّا إلى تحويل الأشياء إلى علامات بحيث يمثّل المكوّن الأوّل في أيّ عمليّة تصوّر سيرورة تشتغل باعتبارها علامة. ويقوم نظامها الدّاخلي على ثلاثة عناصر ما يقوم بالتّمثيل وهو الممثّل، وما يشكّل موضوع التّمثيل وهو الموضوع، وما يشكّل تصوّرا يخوّل لنا تمثل التّجربة الصّافية وهو المؤول.

تصادر السّيميائيات إيكو إذن على أنّ وجود المجتمع رهين تحقق خبراته بالعلامات، تلك الخبرات التي تخوّل لأفراده اختزال العالم المحيط بهم في جملة من العلامات وتجاوز الحسّي إلى ما هوّ مجرّد من تمثيلات ومفاهيم وقيم عبر «فبفضل العلامات استطاع الإنسان أن يتخلّص من الإدراك الخام ومن التّجربة الخالصة ومن ربقة «الهنا» و «الآن»،»(٢٢).

لقد منح التّصور البيرسي الثّلاثي للعلامة دورا مركزيا لمؤول الخطاب مما يفتح على التّعدد اللانهائي للدلالة من خلال تعددّ المؤوّلين ومن خلال إحالته على ضربين من المعرفة: مباشرة وغير مباشرة ولهذا فـ «السيميوطيقا البيرسية على عكس السيميولوجيا السوسيرية لا تركز على علم النّفس ولا على السّوسيولوجيا بأي نوع، تجريبية علم النّفس أو دوركامية السيسيولوجيا [كذا]. فأساس السّيميوطيقا البيرسية هو أساس منطقيّ رياضي».(٢٣) ورغم انفتاحها على السّياق الخارجي من خلال مفهوم الموضوع الديناميكي فقد وطّد إمبرتو إيكو صلتها بالوحدات الثقافيّة وبيّن أنّ إنتاج المعنى جدل مستمر بين النص ومنشئه ومتقبّله.

٣ . ٢ . الفروع: اتجاهات ومدارس

لِما بين المنجزين من تباعد معرفي ومنهجيّ مال بعض الدّارسين إلى الاتجاه البيرسي وتحمّس آخرون إلى المدرسة الدي سوسيرية فيما وجد بعض ثالث توليفات مختلفة بين الرّؤيتين. فكان أن تفرّعت السّيميائيّة إلى مدارس واتجاهات منها:

١. سيميائيات التّواصل التي تفيد من أهم مبادئ دي سوسير(٢٤) المحدّد للّغة بكونها نظاما تواصليا مداره على إشارات يعّبر بها عن الأفكار. وهذا ما نبّه أعلامها على أنظمة التّواصل غير اللّغويّة كحالات التّواصل الشمّي أو

اللّمسي وجعلهم يجدون في التّواصل البصري أرقى هذه الأنظمة وأقربها إلى كفاءة التّواصل اللّساني. ولخلفيتهم اللّسانية أسقطوا آليات التّواصل اللّغوي وقوانينه على بقية الأنظمة[٢٥] واشترطوا معيار القصدية حتى يرتقي نقل المعلومات إلى مستوى النّظام التّواصلي ومن ثمّة صادروا على أنّ الاحتكاك بين جسدين كفيل بأن ينقل بعض المعلومات كأن ينبّه على خشونة يد من أثر العمل الشّاق أو ارتفاع اكتشاف حرارة مصاب بالحمى ولكن خلوّه من القصدية يجعل عندهم دون مرتبة النّظام.

٢. سيميائيات الدّلالة التي تعمل على الاهتمام بالمدلول خلافا لسيميائيات التّواصل التي أسرفت –لاشتراطها مبدأ القصدية– في الانصراف إلى الدّوال ووصف سطوح الخطابات وهذا ما أفضى إلى إهمال السّياق الاجتماعي. فأوكل لها رائدها بارت مهمة دراسة الوحدات الخطابيّة الدّالة المختلفة مبيّنا أنها تتشكّل بدورها وفق أنساق ناظمة فتتجاوز الجملة إلى وحدات أكبر وفتحها على علم الإناسة، والاجتماع، والتّحليل النّفسي.

إلى ذلك يمكننا أن نشير الى اتجاه سيميائيات الأشكال الرّمزية والثقافة الذي يعمل على مد الجسور بين داخل النّصّ وخارجه وتجاوز «قصور» المناهج الرّائجة كالبنيوية والتّوليدية التي تقصي السياقات الحضاريّة للخطابات وأن نشير إلى سيميائيات الثقافة التي تفيد من الفلسفة الماركسية ومن فلسفة الأشكال الرّمزية لكاسيرير لتنزيل الخطابات في أطرها الثّقافية[٢٦]. فبحثت في مختلف الأنساق السّيميائيّة وعملت على سبر احتمالات معانيها.

٣.٣. في الأنساق السيميائيّة

لقد كانت هذه المدارس تتراوح بين البحث النظريّ الصارم ضمن خلفيات فكرية متباعدة غالبا والعمل التّطبيقي الذي يتأوّل النّصوص والظّواهر ويبحث في احتمالات معانيها ضمن ما بات يصطلح عليه بالسّيميائيات التّطبيقيّة. فعلى خلاف السّيميائيات العامة مثلت السّيميائيات التّطبيقية دراسات متخصّصة في تحليل ضروب الخطاب المختلفة فلا تنتج معارف نظريّة متعالية حولها بقدر ما تمثّل منهج وصف وتأويل يسعى إلى قوة الإقناع البلاغي.(٢٧) ومن ثمّة اختلفت تطبيقاتها من باحث إلى آخر وفق منطلقات أصحابها النّظرية واختياراتهم المنهجية فمثّلت آليّة لفهم النّصوص وتأوّل الخطابات والظواهر الثقافية والاجتماعيّة، دون أن يعني ذلك أن البحث السيميائيّ نقد فنيّ «ينخل النصوص» فيقدّر قيمتها الإبداعية أو يرصد مدى فشلها في الاستجابة إلى تطلعات الجمهور. وإنما هو البحث في آليات إنتاج المعنى وكشف مساربه وثناياه. وتُصنّف المباحث السيميائيّة المتخصّصة عامّة إلى صنفين كبيرين ما اختصّ في قراءة الأنساق السيميائيّة اللغويّة وما اهتم بالأنساق السّيميائيّة البصرية.

الأنساق اللّغويّة

تتأثر سيميائيات الأنساق اللّغوية بخصائص اللّغة الطّبيعيّة وآليات إنتاجها للمعنى من اعتباط مقتض للتّواضع والاصطلاح وتقطيع مزدوج مولّد للمقولات النّحويّة الملزمة(٢٨) التي تنضد الخطاب وفق علاقاته التّركيبية على خطّ الزّمن وتمنحه القدرة على التّعبير عن المعاني الإنشائية كالتّمني أو القسم وتكسبه مستويين لإنتاج الدّلالة هما التّقرير والإيحاء.

يمثل منجز قريماس السردي نموذجا جيّدا يساعدنا على تمثل حركيّة المصطلحات السّيميائية وتطور مفاهيمها وخلفياتها الفكرية والفلسفية فصاحبها ينتمي إلى مدرسة باريس رائدة سيميائيات الدّلالة الرّافضة لما وسم البنيويّة من اكتفاء بسطوح الخطابات وتحويلها إلى بنى مغلقة تقصي من دائرتها الأنظمة الخارجية الثّقافية والاجتماعيّة والسّياسية. ومن ثمة اهتم بالمستوى السّطحي من النصّ السّردي فبحث في البرنامج السّردي(٢٩) وتقصّى منوال الفواعل(٣٠) ثم عبر منها إلى المستوى العميق فحاول تمثيل العلاقات التّرابطيّة بين الوحدات الدّنيا مستثمرا المربّع السّيميائي(٣١) وهو نسق منطقيّ ناظم لوحدات الدّلالة الدنيا وآلية تساعد على شكلنة العلاقات التّرابطيّة بينها وعلى تمثيل انبثاق المعنى بصريّا طرفاه محوران أولهما متناقض(من نوع صلابة ورخاوة) وثانيهما متضادّ(من نوع ولا صلابة ولا رخاوة)(٣٢) ويكشف التّمييز بين مستوى سطحي في الخطاب السردي وآخر عميق مدى تأثر صاحبه باللّسانيات التّوليدية.

ولكن ولمّا كان الإنسان لا يأتي الفعل آليّا مجرّدا من المشاعر وإنما يضمّن فعله شحنة معنوية، ولمّا كانت الفواعل تحسّ بقدر ما تعمل انتبه قريماس إلى ضرورة البحث في المسار الهووي من خلال التّركيز على الكينونة التي تتجسد في الحب والغيرة والحسد والغضب والخجل. وانتقل عندئذ من السّيميائيات السّردية التي تبحث في عمل الشّخصية ضمن القصّ فتركّز على الأعمال والفواعل في المسار السّردي إلي سيميائيات الأهواء. فمثل مقاله «في تكييف الكينونة»(٣٣) إعلان انبثاقها.

لا يدرس قريماس –وفانتاني لاحقا هذه الأهواء– من خلال العلامات الدّالة عليها أويحاول أن يضبط لها صنافة تحدّد مجالاتها (اكتئاب، نكوص..) فذلك من مهام علم النّفس ولا يبحث عن موقف معياري منها. فذلك من مهام الخطاب

الدّيني ومنظومة المجتمع الأخلاقية. وإنما يبحث فيها باعتبارها تركيبا دلاليّا يخضع لسيرورة تحوّله من المستوى المجرّد إلى التّجسيد فيهتمّ بأثارها المعنوية.

لقد كان البحث في سيميائيات الأهواء معبرا إلى سيميائيات التّوتر(٣٤) وكان البحث في المسار الهووي خطّا موازيا يتكامل مع سيميائيات الفعل في المسار السّردي.

الأنساق البصرية(٣٥)

تستمد هذه السيميائيات مميّزاتها من خصائص العلامة البصرية نفسها نقصد علاقتها الأيقونية بما تحيل عليه(٣٦) وافتقارها للتّقطيع المزدوج. وهذا ما يولّد يحرمها ممّا يوازي مستوى التّقرير من العبارة اللّغوية ويقصر إنتاجها الدّلالة على الإيحاء والتّداعي والكناية والرّمز. فهي لذلك، تزوّد المتقبّل بفائض من المعنى ويجعل من صفتي البذخ والإسراف نظيرا لخاصيّة اقتصاد العلامة اللّغوية ومقابلا لها. وبالمقابل يضحي التّقني الصّرف كأسلوب توزيع العناصر على سطح فضاء(٣٧) وخصائص تشكيل الاستعارات البصريّة وتكوين(٣٨) الصورة فتوغرافيّة كانت أم سينمائيّة ونسب تباين أضوائها وكيفيّة تأطيرها وقدرتها على استدعاء الزّمن(٣٩) وقوعا على عناصر بلاغة الخطاب لغويّا كان أو بصريّا. من مسارب المعنى الأثيرة.

من مفارقات الصّورة الإشهاريّة(٤٠) أنها ثابتة ومتحركة في آن. هي ثابتة تنزع في عرضها للمنتوج منزعا وصفيّا مبهرا ببريقه الذي يعشي الأبصار وبالفرحة التي تشعّ من عيون المستهلكين بعد أن يجرّبوا استهلاكه. وعلى ثباتها هذا لا تخلو من سرد مضمر تُطوى فيه ثلاث وضعيات في آن: وضع ما قبل الاستهلاك ويرتبط

بالحاجة والحرمان والشّقاء ووضع الاستهلاك وهو وضع وسط نعبر منه إلى ما بعد الاستهلاك وقوامه تحقّق الغاية وإشباع الرغبة والرضا لهذا الإشباع(٤١).

وعلى ما بين السينما والمسرح من تقارب ظاهر فإن اختلاف مفهوم الشّخصية وأسلوب أداء الممثّل بين الفنين يباعد بين طرائق إنتاجهما للمعنى.(٤٢) فالممثّل المسرحيّ، يضخّم من الإيماءات في مبالغة وتكلّف، فيعرض الحكاية في ذات اللّحظة التي يدركها المتقّبل بحيث يتقاسم الطّرفان الرّاهن. أما ممثّل العرض السّينمائي فيعرض لمشاهده أوان التّقبّل ما تم ماضيا(٤٣). وإن كان المشاهد حرا نسبيا في تحديد زاوية إدراك الحكاية وفي تركيز نظره على العناصر التي يريد في العرض الرّكحي، فإن الكاميرا ترغم المشاهد في السّينما على تبني رؤيتها وعلى التّركيز على عناصر بذاتها وعلى النّظر من زاوية دون غيرها هي زاوية التّصوير. وعليه لا تصدر العلامات من الممثّل فحسب وإنما من خلال تدخل الكاميرا واللّقطة مما جعل العديد من المنظرين يتحدثون عن راو خفي يتولى العملية في العرض السّينمائي ذلك الذي أطلق عليه لافاي اسم «المصوّر الأكبر».

وفضلا عن الأنساق اللّغويّة والبصريّة تبحث الدراسات السيميائيّة في الأنساق الثقافيّة فتفصّل إلى سيميائيات العمران واللّباس والطّعام وتتقاطع هذه الاتجاهات أحيانا مع المباحث الإبيستيمولوجيّة وأحيانا أخرى مع الدراسات الأنتروبولوجيّة فتثريها إثراءً بيّنا..

تختلف هذه الدّراسات التّطبيقيّة -على أيّامنا خاصّة- من جهة المحامل والعلامات والمقاربات وعلى اختلافها تشترك في مبادئ أساسية فهي لا تؤمن أبدا، وهي تبحث في أنساق العلامات، أنّ المعاني مودعة ما قبليّا في أشكال ماديّة مترسّبة ومتحجّرة وأن الباحث السّيميائي عالم أحافير يعمل على الوصول إلى أصل الأشياء

وجوهر الحقائق قبل تحجّرها، ولا تدّعي مطلقا سعيها إلى إدراك الحقيقة الصّافية القائمة طيّ الخطاب أو النّفاذ الآمن إلى مقاصد المبدع. وبالمقابل ترفض أن تكون هذه المقاصد كلاّ نهائيّا ثابتا أو أن يحمل العالم المادي من حولنا دلالة في حدّ ذاته. وهذا ما يجعلها تعمل باستمرار على خلق جدل بين النّظم السّيميائيّة سواء كانت لغويّة أم بصريّة والظّروف الحافّة بعمليّة الإبداع وأثر قوانين الإنشاء الذّائعة وما تخلق من آفاق انتظار. فتتجاوز البنية المغلقة للنصوص وتقدّر أن حيّزا مهماً من المعنى لا يوجد في العلامات النّصّية وإنما في جدل الحدث الإبداعي مع السّياق الاجتماعي والنّفسي والحضاري.

٤. التّشخيص ثانية: في الأسباب العميقة لأزمة المصطلح

يمثّل ارتباك جهاز السّيميائيات العربيّة المصطلحي عيّنة ذات قدرة تمثيليّة لبعض العوائق التي تحول دون تدقيق هذه المعارف وتجويدها. وهذا ما يجعل من توحيد المصطلحات متى اتفقت مفاهيمها ضرورة ملحّة ولا يكون ذلك إلا بتوحيد آليات ابتكارها وتوليدها وترجمتها على المستوى اللغوي كأن تُمنح الأولوية للمفردة التي يسهل نطقها ويستساغ وتسمح بالاشتقاق ويُفضل اللّفظ المفرد على الاسم المركّب. أمّا على مستوى التداول فلا يتحقّق هذا التوحيد إلاّ متى أخذنا بمبدأ شيوع المصطلح –ما لم يكن مفتقرا للدّقة– ونأينا عن النّادر وآثرنا العربي الفصيح ومنحناه الأولويّة(٤٤).

وللحدّ من ميوعة هذا الجهاز لابد أن تعقد الصلة بين المصطلح والمفهوم وأن تدقّق المفاهيم وترتّب بحسب كل حقل ويضبط مسار تطورها وتعهد بالتّحيين المستمرّ فتنفتح المباحث السيميائية على الفنون والعلوم الإنسانية والفلسفة وتُمدّ

الجسور التي تصلها بالحقول المعرفية المجاورة. ولكثرة المعاجم المختصّة المهتمة بالمعارف السّيميائيّة ولتباعد اقتراحاتها اصطلاحا وضبطا للمفاهيم أضحى ضبط آلية لتقييمها ولتمييز جيّدها من رديئها ومحكّمها من عفويّها ضرورة أكيدة. وبديهيّ أن تعهد هذه المهّمة إلى المؤسّسات العلميّة.

لقد استقرت المصطلحيّة اختصاصا بارزا في فضائنا الثّقافي العربيّ يعمل على تجويد المصطلح ورفع كفايته لذلك لا يمكن لعمل محدود في المدّة والمدى كالذي نقدّم أن يدّعي بدعا من الأمر. خاصّة وقد أقيمت الملتقيات العلميّة المختصّة وأُلفت الآثار في الغرض ورفعت التّوصيات. ولكن جدير بالملاحظة أنّنا لا نكاد نلمس من أثر لهذا الجهد في منجز الكثير من باحثينا. وهذا ما يؤشّر على خلل في تشخيص هذه المعضلات في المباحث السّيميائيّة كما في مختلف الحقول المعرفية العربيّة.

فما تقدّم من مقاربتنا أنّ الإشكال أكبر من تباعد في مقترحات الترجمة أو في آليات التوليد، وأكبر من إشكال ذهني على صلة بعسر تمثّلنا لهذه المعارف في مظانها الغربيّة وإشكال مؤسساتي إداري على صلة بغياب منظّمات ترعى التّنسيق المتواصل بين الباحثين العرب وتدعمه.

إنّ أسبابا عميقة تظل بمنأى عن الرّصد وجها آخر من المعضلة يظل غائبا عن مختلف المقاربات المتداولة هو المستوى الابيستمولوجي. فقليلا ما وجدنا المباحث المصطلحية المختصّة -السيميائيّة في حال عيّنتنا- تأخذ التراكم المعرفي بحسبان فتجعل عملها استئنافا للقول في المسألة تقييما وتعديلا ونقدا وكثيرا ما اكتفت بشكوى فوضى الاصطلاح ووقوفه حائلا أمام تعميق المعارف السّيميائيّة تاركة الفصل فيها إلى الزمن باعتباره مصفاة طبيعية تلفظ المتواهي منها. وكيف يكون المعوَّل على الزّمن وحده وتبعيتنا العلميّة تجعلنا ننقل المصطلحات من مصادر مختلفة

متباعدة في الفضاء أو في الزمن: فيأخذها الناطقون باللّسان الفرنسي عن الثّقافة الفرنسية ويستدعيها الناطقون باللّسان الإنجليزي عن الثّقافة الأنجلوساكسونية. وتلتقي غالبا في الأثر العربيّ الواحد دون أن يعي الباحث ما بينها من الاختلافات الحضارية والخلفيات الفكرية والفلسفية النّاظمة. ويأخذها هذا وذاك عن المؤسّسين كما يأخذانها عن اللاّحقين فيطويان الزّمن ويغفلان عن فعل التّراكم والتطوّر ويدفعان إلى حوضنا الثّقافي أحيانا بقضايا حسمت في مصادرها الغربية وتم تجاوزها هناك(٤٥).

لا مناص إذن من تجاوز الشكوى التي دأب عليها باحثونا والموقف الانفعالية التي تحبّر هنا وهناك إلى التّفكير الرّصين في معضلة الاصطلاح مقاربة معرفية تضبط المصطلحات الأصول وتربطها بمفاهيمها وتصنف معارفها برد الفروع إلى الأصول ورصد حركة مفاهيمها والبحث في مسار تطورها وتفاعلها وإبراز خلفياتها الفكرية والإبيستمولوجيّة للوقوف عند ما تحقّق فيها من تراكم معرفي وقطائع. لقد بدا هاجس المباحث المصطلحيّة مقتصرا على المناداة بتوحيد المصطلح وتوحيد المفاهيم آملا في «وضع مصطلح واحد للمفهوم العلمي الواحد ذي المضمون الواحد من الحقل الواحد».(٤٦) وهذا الحلّ طوباويّ بعيد المنال يصيب الباحث بالإحباط لعسر تحقّقه ويعمّق الأزمة بدل التّخفيف من وطأتها فمثل هذه الرغبة تكشف عن تصور يرى منجز المصطلحيّة سكونيّا ثابتا ويرى ما تنتهي إليه العلوم الإنسانيّة حقائق مقدّسة لا يطالها القصور والنّقص والحال أنّ تاريخ العلوم - كما يقدّر بشلار هو تاريخ أخطائها ومسار تصحيحها.

وعليه فقد حاولنا ضبط ما يشبه ترسيمة للمعارف السّيميائيّة تسلّم بنسبيّها فتضبط اتجاهاتها وتحاول إدراك أسباب الاختلاف بينها وتحديد عناصر تقاطعها.

ولا يكون ذلك إلاّ بالانتباه إلى أنّ مصطلحاتها قائمة على مفاهيم متحوّلة في الزّمن متحرّكة في الفكر تتوزّع خلفياتها بين الفلسفيّ والمنطقيّ واللّسانيّ، وإلى أنّ سبيل الإفادة من هذا الدرس رهين وعينا بالخلفيات الفكرية والجماليّة التي تقوم عليها المدارس والاتجاهات السّيميائية حتى نتبيّن حركيّة الفكر وديناميته من جهة وحتى نجنّب مباحثنا نزعة التعصّب إلى مدرسة دون غيرها ونعصم أعمالنا من الجمع بين مرجعيات متباعدة متناقضة أحيانا.

لا شكّ أنّ جهاز المباحث السّيميائيّة المصطلحي يمثّل إشكالا حقيقيّا ومصدر إرباك يعيق الباحث العربي ويحول دون إفادته مما تتيحه هذه المعارف من تعميق للقراءة والتأويل وأنّ هذا الإشكال عيّنة تختزل ما تواجهه العلوم مختلف المباحث العربية فتشترك فيها الدّراسات الفلسفية والقانونية والنّقد الأدبي. وهذا ما يجعل معضلة الاصطلاح أكبر من اختلاف في ترجمة sémiotique باصطلاح [سيميائيات] من لفظ [سمة] ومن الجذر [و- س- م] أو بـ [علاماتية] فنشتقها من الجذر [ع- ل – م] أو أن يتحرّك فينا سخاؤنا العربيّ وتبلغ الاقتراحات خمسة عشر اقتراحا، وأوسع من مشكلة تقنية. فصلتها بالوجودي والعرفاني عميقة. إنها وجه آخر من التّشتت الذي نعيشه على المستوى الفكري والحضاري والسّياسي والإداري وبنية ذهنية ناشئة عن تصوّرنا للوجود وفعلنا في التّاريخ. فالسّعي إلى «وضع مصطلح واحد للمفهوم العلميّ الواحد ذي المضمون الواحد من الحقل الواحد» يعكس مصادرة ضمنيّة مدارها على أنّ المفاهيم العلميّة ثابتة مسطحة لا يتغير بتغير الزّمن جامدة متعالية على التّاريخي والحضاريّ. وفي الآن ذاته يجسّد تصورنا للأشياء من حولنا. فهي ثابتة ساكنة مكتملة التّشكل (مسطحة أيضا) متعالية على التاريخ. وبمنأى عن حراكه غير متأثرة به.

على الرغم من هذه الأسباب العميقة التي تتوزّع بين الإبيستيمولوجيّ والوجودي والعرفانيّ، لا نميل إلى الطّرح العدميّ الذي يرى في الظّاهرة علامة على انهيار علمي وثقافيّ. فهذا الإشكال قائم في مختلف اللّغات عابر لكلّ العلوم –بما في ذلك العلوم الصّحيحة– مترسّخ في الحياض الثقافية المنتجة للمعارف. فما بالنا بالحضارات المستهلكة واللّغات المستقبلة للنظريات والمصطلحات.

وعليه فقد حاولنا تدبّر معضلة المصطلح تدبّرا منتجا يفكّك المنجز ويعمل على تمثّله ضمن خلفياته فكرية كانت أو إيديولوجية أو الفلسفية ومنطلقاته لسانية كانت أو منطقية وما تصنيفنا للمعارف السيميائية إلى أصول وفروع ومدارس واتجاهات سوى سبيل آخر لتمثّل هذا المنجز وفق رؤية تأليفيّة تسعى إلى الكليّات والأنساق النّاظمة فتقع على ما في المشهد السّيميائي من تعدّد في الفضاء (سيميائيات أمريكية وأخرى سوفياتية وثالثة فرنسية) وحركية في الزّمن (من السّيميائيات الوصفيّة المتأثرة بالبنيويّة إلى السّيميائيات التّأوليّة المنفتحة على التّداوليّة).

ولعلّ مقارنتنا بين سيميائيات قريماس وأمبرتو إيكو أن تبيّن أثر الخلفيات الفكرية في تحديد اتجاه المقاربات وفي رصد معانٍ من الخطابات دون غيرها. فقد كانت كلتاهما ردّة فعل على البنيوية التي تكتفي بالسّطوح دون أن تدرك عمق النّص ودون أن تبحث عن المعنى ولكن قريماس انحاز إلى الخلفيّة المنطقيّة وتأثر عميقا بمنجز اللّسانيات التوليديّة فجعل مقصده البنى العميقة المنتجة للمعنى من مربّع السيميائي برنامج سردية ومنوال للفواعل أمّا أمبرتو إيكو فنزع بمقارباته السّيميائيّة منزع التّداوليّ الذي ينتبه أكثر إلى تأثير الوحدات الثّقافية والسّياق القائم خارج النّص في إنتاج المعنى.

١.

مصطلحات بيرس	سيزا قاسم	سعيد بنكراد	عادل فاخوري	عبد الرحمن بو علي
Représentamen Re	المصورة	ماثول	ماثول	ممثل
Objets O	موضوعة	موضوع	موضوع	موضوع
Interprétant I	مفسرة	مؤول	التعبير	مؤول

سيزا قاسم: مدخل إلى السيميوطيقا، ط ١، القاهرة، ١٩٧٧، ص٢٦.

سعيد بنكراد: السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها، دار الحوار، ط ٢، سوريا،٢٠٠٥، ص٩١.

عادل الفاخوري: السّيمياء، الموسوعة الفلسفية العربية، المجلد الثاني، معهد الإنماء العربي ط ١، ١٩٨٨ ص ص٧٥٣-٧٧٢.

عبد الرحمن بوعلي: دال جيرار دولو، السّيميائيات أو نظرية العلامات، ترجمة عبد الرحمان بو علي، دار الحوار ط ١ سوريا٢٠٠٤ ص٤٧.

٢. لم يسلم هذا المصطلح من الاختلاف أوّل ظهوره عند باحثي السّرديات فعُرّب عند سيزا القاسم بـالمربّع السّيميوطيقي وعند النّاصر العجيمي بالمربّع العلامي ثم ترسّخ لدى جمهور النّقاد والباحثين وفق اصطلاح المربّع السّيميائي. ومداره على قطبين أساسيين: كونه منوالا منطقيّا كائنا في البنى العميقة للنّصوص وقيامه على مقولات التقابل.

٣. أ) القاضي: «المنوال المنطقي الذي تصور من خلاله شبكة العلاقات وتمفصل الاختلافات» محمد القاضي وآخرون، مهجم السرديات، دار محمد علي للنشر، ط١تونس ٢٠١٠، ص ٣٨٢.

ب) بورايو: صياغة منطقيّة قائمة على نمذجة العلاقات الأوّلية للدّلالة القاعدية التي تتلخّص في مقولات التّناقض والتّقابل والتّلازم» عبد الحميد بورايو: المسار السّردي وتنظيم المحتوى، دراسة سيميائية لنماذج من حكايات «ألف ليلة وليلة» دار السّبيل للنّشر والتّوزيع، ٢٠٠٨، ص٢٣٢.

ج) بن مالك: «يفهم من المربّع السيميائي التّمثيل المرئي للتّمفصل المنطقي لأية مقولة دلاليّة. يمكن ن يوضّح أأن يوضّح ويمثّل [كذا] نظام العلاقات بواسطة نموذج منطقيّ يبرز شبكة العلاقات وتمفصل الفوارق». رشيد بن مالك: قاموس مصطلحات التحليل السيميائي للنصوص دار الحكمة ٢٠٠٠ (الجزائر) ص٢٣.

د) الداهي «ينبغي في إطار رصد علائق المربع السيميائي أن نبيّن كيف تتكون التّشاكلات على المستوى التّلفظي»: محمد الدّاهي: سيميائية السّرد، بحث في الوجود السّيميائي المتجانس: ط١، ٢٠٠٩ رؤية للنشر القاهرة، ص١٠.

هـ) العجيمي: «بوسعنا انطلاقا من البنية الدّلالية الأساسية القائمة كما ذكرنا على التّقابل أن نؤسس نموذجا منطقيّا ينظّم شبكة العلاقات بين وحدات دلالية متولّدة عن البنية المذكورة نسمي هذا النّموذح «المربع العلامي» محمد الناصر العجيمي: في الخطاب السردي، نظرية قريماس، الدار العربية للكتاب ط١، تونس ١٩٩٣. ص٩٥.

٤. يعدّ مؤلف فيصل الأحمر «معجم السّيميائيات» نموذجا لهذا الخلط، وهو الذي يقدّم معجما للسّيميائيات يفترض أن يكون مرجعا لمن اشكلت عليهم اصطلاحات هذا العلم. فنجده -على سبيل المثال- يقدّم في الصفحة نفسها، وهو يبحث في خصائص مدرسة سيميائيات الدلالة، اقتراحات أربعة هيّ السّيميائيات والسّيميولوجيا وعلم الأدّلة والنّظام الدلائلي. فيعتمد أحيانا ما يقتضيه السّياق ويورد حينا آخر المصطلح الذي يتبنّاه الباحث الذي ينقل عنه (مختار ملاس: دلالة الأشياء في الشعر العربي) أو المترجم (محمد البكري مترجما لأثر éléments de sémiologie لرولان بارت بعنوان مبادئ في علم الأدلة). ولئن عاد هذا الارتباك – في قدر كبير منه – إلى فوضى الاصطلاح في حوضنا الثّقافي العربي وقد أبدى الباحث انزعاجه منها في مستهل بحثه، فإنه سريعا ما اطمئن وأخذ يفيد من المصادر المختلفة ويتبنى اختياراتها الاصطلاحيّة على تباعدها دون تدقيق أو تمحيص. وهذا ما جعل من عمله تجسيدا جديدا لفوضى الاصطلاح هذه. لمزيد من البيانات انظر فيصل الأحمر: معجم السّيميائيات، الدار العربية للعلوم «ناشرون» ط١ بيروت ٢٠١٠ عامة الأثر وقد أخذنا نماذجنا من الصّفحة ٩١.

٥. كنّا قد اقترحنا في أثرنا «التّقبل السينمائي للقصّ الأدبي» ما تداولته الدّراسات المختصّة الدّقيقة من تعريب نحو [لقطة جاذبة Plan en amorc، وضعيّات حسيّة حركيّة des situations sensori-motrices، أوقات العطالة Les temps morts]. ولكن تقصّي هذه المصطلحات في مظانها عسير. فهذه المباحث ضنينة من ناحية غير مبذولة للدارس من ناحية ثانيّة ممّا عقّد

محاولة سبرها في مظانها البعيدة واستنزف منّا الجهد والوقت. وشغلنا بأسئلة جانبيّة يفترض أن تكون المباحث السّابقة قد حسمت أمرها.

٦. البحث في العلامات قديم قدم الفكر الإنسانيّ باعتبار وساطة العلامة بين الإنسان والوجود. فقد انتبه العرب عند تناولهم للظّاهرة اللغوية بالدرس إلى قيام العلامات، مقام الرّموز وإلى اندراج الكلام ضمن الأنظمة السّيميائيّة العامة ففصّلوا مراتب البيان وحاولوا تصنيف الأنظمة الدّالة وتدرّجوا في دراستهم للكلام من التّصويت إلى العلامة ووجدوا في أشياء العالم من حولهم علامات بصريّة تبين بذاتها وتمنح متأملها الحكمة فيصادر الجاحظ على أنّ «موضوع الجسم ونصبته، دليل على ما فيه وداعية إليه، ومنبهة عليه. فالجماد الأبكم الأخرس من هذا الوجه، قد شارك في البيان الإنسان الحيّ النّاطق. [الجاحظ: الحيوان، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ١٩٦٥، ج ١ ص٣٥. لذلك [يجد] كونَ العالم بما فيه حكمة، و[يجد] الحكمة على ضربين: شيء جُعل حكمة وهو لا يعقل الحكمة ولا عاقبة الحكمة وشيء جُعل حكمة وهو يعقل الحكمة وعاقبة الحكمة» [م. ن. ص٣٣].

أما ابن وهب فيرى أنّ [الأشياء تُبين للناظر المتوسّم والعقل المتبيّن، بذواتها وبعجيب تركيب الله فيها وآثار صنعته في ظاهرها كما قال تعالى:إن في ذلك لآيات للمتوسّمين. ابن وهب الكاتب: البرهان في وجوه البيان، تحقيق أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، بغداد ١٩٦٧، ص٦٠].

ولم يكن بحث الغرب في هذه الظّاهرة أقل قيمة فقد فصّلوا العلامة إلى دال ومدلول وبحثوا في العلاقة الاعتباطية بينهما فميّزوا الطّبيعيّ منها من الوضعيّ وخاضوا في وظائفها سواء عند البشر أم عند الحيوان ولعلّ مصادرة أرسطو على أنّ الوجود هو ما تقوله اللغة بطرق شتى منذ عصور الإغريق الأولى خير دليل على ذلك. وبقدر ما تيتميّز هذه البحوث بالابتكار والسّبق نقدّر أن تطّور المعارف السّيميائيّة، منذ القديم، بديهي باعتبار ضرورة العلامة لمعرفة كنه الوجود. وبعيدا عن البحث في الجذور والإرهاصات مثّلت بدايات القرن العشرين انعطافا إبيستيميّا حاسما. فقد بات من المصادرات أن الفضل في نشأة السّيميائية، منهجا للبحث والمقاربة، يعود إلى مصدرين: ما توصل إليه بيرس من نتائج بحث وما ألقاه دي سوسير من دروس في اللّسانيات العامّة. وبات من المصادرات أيضا أن ما قام بينهما من اختلاف في المفاهيم ومنطلقات المقاربة منهجيا وإبستيميّا أسّس لما تشهده المباحث السّيميائية من غزارة وتنوع.

٧. «إن اللغّة نظام من الدّلائل والعلامات.. وهي في هذا شبيهة بالكتابة وبألفبائية الصّم والبكم وبالطقوس الرمزية وصور آداب السلوك وبالإشارات الحربية وغيرها إلاّ أن اللّغة أهم هذه

الأنظمة جميعا» فاردينان دي سوسير، دروس في الألسنية العامة، تعريب صالح القرمادي محمد الشاوش محمد عجينة ط ١ الدار العربية للكتاب ١٩٨٥، ص٣٧.

٨. «فخلافا للدّوال المرئية (مثل الإشارات البحرية وغيرها..) التي تَمْثُل متزامنة ذات أبعاد متعددة فإن الدّوال الأكوستيكية Acoustique ليس لها ما تتصرّف فيه غير خط الزّمن فتأتي عناصرها الواحد تلو الآخر مكوّنة بذلك سلسلة»م. ن. ص ١١٤/ ١١٥.

٩. «وإذن فإنه من الممكن أن نتصوّر علما يدرس حياة الدلائل في صلب الحياة الاجتماعية.. ونقترح تسميته بـ Sémiologie» م. ن. ص ٣٧. أما نحن فنختار ما رسّخه الاستعمال فنعرّب Les signes بـ (العلامات) بدل (الدّلائل).

١٠. فاردينان دي سوسير، دروس في الألسنية العامة، ص ١١٠.

١١. م. ن. ١١٣.

١٢. م ن ١١٥.

١٣. م. ن. ١١٥/ ١١٤.

١٤. م. ن. ص ٥٠/ ٤٩.

١٥. ولا هدف للعناصر المقدّمة هنا سوى أن تستنبط من اللّسانيات مفاهيم تحليليّة نقدّر سلفا أنها شاملة بقدر يجعلها تتقدّم بالمبحث السيميولوجي Reland barthes: l'aventure sémiologique éd Seuil 1985. p 19.

١٦. تعتبر هذه الفرضية المقولاتيّة مقولات فانيروسكوبية نسبة إلى ما يسميه بيرس بالفانيرون Phaneron (والفانيرون هو كلّ ما يوجد في ذهن الكائن في كلّ زمان ومكان سواء طابق شيئا أم لم يطابقه) ويعرّف المقولة الأوّلانيّة بكونها «مقولة تحقّق كلّ ما من شأنه أن يوجد في راهنيّة وجوده دون إحالة على وجود ثان» أما المقولة الثّانيانية فيعرفها بكونها «تحقق كل ما هو موجود مهما كانت ماهيته ودون إحالته على موجود ثالث» أما المقولة الثّالثانية فيعرفها بكونها «الفكرة التي توجد عن كل موجود» ويقارب هذه المقولات بمفاهيم سيكولوجية بقوله «إن الأوّلية (هكذا في تعريب عبد الرحمن بوعلي) هي مقولة الإحساس أو بكلمة أدق هي مقولة ما قبل الإحساس، والمعيش غير المفكر فيه، وغير المحسوس كمعيش [كذا]. أما الثّانوية فهي مقولة الفعل في حالته الخام غير المفكّر فيها.. أما المقولة الثّالثة فهي مقولة الوعي المفكر فيه» انظر دال جيرار دولو، السيميائيات أو نظرية العلامات ترجمة عبد الرحمان بو علي دار الحوار ط ١ سوريا، ٢٠٠٤ ص ٧٩.

١٧. من هذا المنطلق يقرّر ارنيست كاسيرير «إننا نحيى داخل كون رمزي.. وبقدر ما يزداد النّشاط الرّمزي يتراجع الواقع». Ernest Cassirer ;Essai sur l'homme; éd Minuit;1975;P43.

١٨. «إن العلامة (الممثّل) هي شيء يعوّض بالنّسبة لشخص[كذا] ما شيئا ما بأية صفة وبأية طريقة. إنه يخلق عنده علاقة موازية أو علامة أكثر تطوّرا. إن العلامة التي يخلقها أطلق عليها مؤوّلا للعلامة الأولى وهذه العلامة تحلّ محلّ الشّيء: موضوعها». سعيد بنكراد، السّيميائيات ص٩٧ مقتبسا الفكرة عن بيرس.

١٩. « جيرار دولو دال، السّيميائات أو نظرية العلامات، ص٤٧.

٢٠. يكون بذلك المبحث السّيميولوجي قسما من علم النّفس الاجتماعي متفرّعا عن علم النفس العام لمزيد من التفصيل فاردينان دي سوسير، دروس في الألسنية العامة ص٣٧.

٢١. أمبرتو إيكو، العلامة: تحليل المفهوم وتاريخه، ترجمة سعيد بنكراد، المركز الثّقافي العربي، بيروت، الدّار البيضاء، ٢٠٠٧، ص٤٥.

٢٢. م ن ص ٢٠٣.

٢٣. جيرار دولو دال، السّيميائيات أو نظرية العلامات، ص٢٤٠.

٢٤. إضافة إلى الأصول السّوسيرية اغتذت سيميائية التّواصل من اختصاصات متعدّدة منها الرّياضيات والمنطق والفيزياء وكان من أعلامها بويسنس وبرييتو ومونان وقرايس وأوستين ومارتينيه.

٢٥. «عبارة عن دراسة للوسائل المستعملة في التّأثير على الآخر[كذا] بشرط أن يعترف هذا الأخير بتأثيرها عليه [كذا]» Introduction à la sémiologie في George Mounin نقلا عن محمد السرغيني: محاضرات في السّيميولوجيا ص١٧

«لا وجود لأي تواصل عن طريق العلامات دون وجود قصديّة وراء فعل التّواصل ودون وجود إبداع أو على الأقل دون وجود توليف للعلامات» جيرار دولو دال، السيميائات أو نظرية العلامات، ص١٢٦. انظر أيضا عبد الله إبراهيم (وآخرين)، معرفة الآخر، مدخل إلى المناهج النقدية، المركز الثقافي العربي، بيروت/ الدّار البيضاء، ط ١، ١٩٩٠ ص٨٥/ ٨٤.

٢٦. انظر محمد السرغيني، محاضرات في السيميولوجيا، الدار البيضاء، دار الثقافة للنشر والتوزيع، د ت، ص ص ص٥٤/ ٤٨.

٢٧. «تمثّل السيميائيّة التّطبيقيّة منطقة ذات حدود غير دقيقة من الأفضل أن نتحدّث بخصوصها عن ممارسة تأويليّة وصفيّة مثلما يحدث في النّقد الأدبي ذي الوجه أو الطّابع السّيميائي على سبيل المثال، وفي هذه الحالة لا أظنّ أنه يجب أن نطرح مسألة العلميّة بل مسألة قوّة الإقناع البلاغي والفائدة في مستوى فهم النصّ والقدرة على جعل الخطاب حول نصّ ما قابلا للتّحكم بصفة مشتركة» أمبرتو إيكو، السيميائية وفلسفة اللغة، تعريب أحمد الصّمعي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط١،٢٠٠٦، ص ص ص ٣٤ – ٣٥.

٢٨. كمقولة العدد والجنس والتّعريف والتّنكير والزّمن.

٢٩. يختزل البرنامج السّردي في القواعد المنطقيّة المتحكّمة في تداول الحالات والتّحولات التي عنها ينهض وظيفة السرد في الخطابات «فالبرنامج السّردي يحدّد دائما بالحالة – أي العلاقة بموضوع القيمة– التي يؤدّي إليها» محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، ص٥١.

٣٠. منوال الفواعل (يعربه بعضهم بالمنوال العاملي) هو شكل تركيبيّ أوّلي للدّلالة يفيد من مفهوم دوائر العمل في مرفولوجيا الخرافة لبروب لاستنباط هذا المنوال الذي يبيّن حركة السّرد فيجعله سداسيّ الأقطاب يترابط كل زوجين من مكوناته وفق علاقة الرّغبة بين الذّات والموضوع وعلاقة التّواصل بين المرسل والمرسل إليه وعلاقة الصّراع بين المساعد والمعارض يكون البرنامج السّردي اتصاليا إذا ما تغلّب المساعد على المعارض وأمكن للذّات أن تتّصل بموضوعها أما إذا ما تغلّب المعارض على المساعد فتنفصل الذّات عن موضوع رغبتها ويكون البرنامج انفصاليّا.

٣١. تذليلا لهذا المفهوم نورد منجز كورتي. فقد درس الزوج / حياة موت في الكتاب المقدّس وفق مفهوم المربّع السّيميائي فبيّن أن المسيح يمرّ بالمراحل الآتية:

١) لا حياة + لا موت: حالة الوجود الرّباني خارج حدود الحياة والموت.

٢) الحياة: باعتبار أنّ الولادة تجعل من المسيح كائنا بشريّا.

٣) اللاّ حياة: الاحتضار على الصليب.

٤) الموت: الوضع في التابوت.

٥) اللاّ موت: عملية البعث.

٦) الحياة: الخروج من التابوت.

٧) اللاّ حياة واللاّ موت: الصّعود إلى السّماء لمزيد من التّوسع انظر (.COURTÉS, J. (1991), Analyse sémiotique du discours. De l›énoncé à l›énonciation, Paris, (154-Hachette.: 152

٣٢. ويستلهم قريماس هذه الآلية التّأويليّة من المربّع المنطقي لأرسطو ومداره على تمثيل التّقابلات المنطقية بين القضايا الأربع (كلية موجبة وكلية سالبة وجزئية موجبة وجزئية سالبة).

٣٣. A. J. Greimas « de la modalisation de l’être » in Actes sémiotiques, bulletin n° 9, 1979.

٣٤. sémiotique tensible: دراسة ظواهر تنساب في الزّمان (الهوية + الوجدان) فتتداخل مع مفاهيم أخرى (كتداخل الحسّي بالمعرفي. وتزعم هذه المباحث قدرتها على قياس الانفعالات وضبط درجاتها الدنيا والقصوى ضمن ما تصطلح عليه بالتّرسيمة التّوترية وتعتمد مفاهيم

رياضية وتنزل الظواهر ضمن محورين متقاطعين فتجعل المحور العمودي للكثافة في ذات اللحظة وتجعل المحور الأفقي للتمدّد في الزمن.

٣٥. تشمل سيميائيات الخطاب البصري الفن التّشكيلي والعمارة والكاريكاتير والخط والزّخرف..

٣٦. ما يشار إليه عند السيميولجيين بالتّشابه بين الدّال البصريّ ومدلوله.

٣٧. الفضاء في اللغة البصرية مزدوج: فضاء الحامل [سطح اللّوحة أو الصّورة أو الشّاشة] والفضاء المرجعي المادي [جبال وأودية وسهول].

٣٨. ضمن البحث في تكوين الصّورة تُدرس العلاقة بين الواجهة والخلفية وكيفيّة ضبط عمق المجال وتحدّد نقطة التّلاشي وتشكيل منظور الإدراك وتوزيع العناصر المصوّرة على نقاط القوة وفق قاعدة الأثلاث الثّلاثة (règle des trois tiers).

٣٩. يتّسم زمن الصّورة الفوتوغرافيّة بالثّبات باعتبارها تعرض دائما ما تمّ وانقضى، وترتبط عضويّا بالماضي فتمنح متقبّلها فرصة تملّي دقائقها. ومع ذلك فمعناها لا يكتمل إلاّ في الحاضر حينما يشتغل إدراك متقبّلها فيتفاعل مع تلك السّبابة السّرية القائمة طيها فيصادق على ما تشير إليه أو يقاومه ويعمل على خلق احتمالات معنى بديلة بناء على خبراته ووحداته الثّقافية.. وعليه نفى بارت في «عناصر السّيميولوجيا» اشتمالها على معنى تامّ في ذاتها واعتبرها محفّزة للإدراك تقترح عليه مشاريع معنى فحسب. وقدّر إمبرتو إيكو أنّ هذه المشاريع تبقى حيّز الكمون فلا تتحقّق فعليّا إلاّ من خلال مصادقة المتقبّل عليها. فكما تتوقّع الصّورة متقبّلها يتوقع المتقبّل، بناء على خبراته وذاكرته الصور. أمّا الصّورة السينمائيّة فلقيامها على مبدإ الحركة لا تجسّد إلاّ ما يجرى الآن وهنا ولا تتجاوز الإحالة على الرّاهن إلا بحيل أسلوبيّة يبتكرها المبدع.

٤٠. تمثّل الصّورة الإشهاريّة نمطا مخصوصا من الصّور الفوتغرافيّة تجعلها خصوصيتها مصدر جذب لمختلف المفارقات. تتمثّل أولى مفارقاتها في قيامها على مختلف مقومات اللّعبة فهناك اللاّعب (المنتج) المنافس (المستهلك) والرّهان (إرغام المستهلك على اقتناء البضاعة) ومن ثمّة كانت القصدية المحض، فكل ما يعرض فيها من المكوّنات البصريّة أو التّشكيلات الخطيّة الممثّلة للخطاب اللغويّ، يُرتّب بعناية ويُحدّد لتحقيق هذا التحدّي. ووجه المفارقة هنا أنّ النوايا معلومة سلفا وهي بحث منتج البضاعة عن أسواق جديدة وعن مستهلكين جدد أو توريط المستهلكين القدامى في مزيد الإقبال على البضاعة مستعينا بمختصّين في مجال التّسويق يدرسون جيّدا نفسيته وحاجياته ونقاط ضعفه التي يؤتى منها عاملا على تحقيق الرّبح الأقصى. فلعبة الإشهار لا تحدّد قواعدها وغايتها فحسب وإنما تفضح فيها حيل اللاّعب كذلك وتكشف خططه علنا.

٤١. «وفي حالة الإشهار فإنّ المقصود بالسردية هو تمفصل الوصلة ضمن طوليّة زمنيّة مدركة من خلال الإيحاء بوجود وضع بدئي تتخلله لحظة نقص تليها لحظة ثانية تختم الدّورة الحركيّة، وفيها يدخل المنتوج باعتباره حلاّ لعقدة طال أمدها في الزمان وفي الفضاء» سعيد بنكراد: سيميائيّة الصّورة الإشهاريّة، أفريقيا الشرق، ٢٠٠٦، ص٦٥.

٤٢. تكون الشّخصيّة السّينمائية ثلاثيّة الأبعاد. فهي أوّلا دور مستقلّ عن النّصّ الفيلمي يقتضي جملة من الكفايات وهي ثانيا شخصيّة تزرع في هذا الدّور الافتراضيّ العام حياة وينتقل بها من طور التّجريد والافتراض إلى عالم القصّ وهي أخيرا لممثّل يجسّد الشّخصيّة أيقونيّا وغالبا ما يؤدي –عند المتقبّل- الشّخصيّة الواردة في الفيلم وكلّ الشّخصيات التي أدّاها سابقا فيكون جسده موطنا «لحركة قوية من التّناص» حمادي كيروم، الاقتباس من المحكي الروائيّ إلى المحكيّ الفيلمي، سلسلة الفن السّابع، منشورات وزارة الثقافة، المؤسسة العامة للسينما، دمشق ٢٠٠١، ص١٧٣.

٤٣. يقارب لوتمان الاختلاف بين السّينما والمسرح مقاربة سيميائية طريفة فعلى الرّكح نرى كائنا بشريّا، حين تُعرض الشّخصيّة، ولكنّ هذا الفنّ يرغمنا على تجاهل هذا البعد فيه وعلى الاقتصار منه على بعده السّيميائيّ وبالمقابل يعرض علينا الفيلم حزمة من الأضواء تُبسط على الشّاشة المسطّحة ولكن «هذا أيضا علينا أن ننساه لنتعامل مع شخصيات الشّاشة تعاملنا مع أناس يضجّون بالحياة.. في الحالة الأولى نستخدم الواقع على أنه علامات وفي الثّانية العلامات على أنها الواقع» لمزيد من التوسع انظر يوري لوتمان، قضايا علم الجمال السّينمائي، سلسلة الفن السّابع، منشورات وزارة الثقافة، المؤسسة العامة للسينما، دمشق ٢٠٠١ص١٣٩.

٤٤. كثير ممّا تذكر في هذا المستوى بديهي انتهت إليه اللّقاءات العلميّة السّابقة من ذلك ندوة توحيد منهجيات وضع المصطلح العلمي العربي التي نظمها مكتب تنسيق التعريب في الرباط ١٩٨١. (انظر مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد ٥٦ ج٤، أكتوبر ١٩٨١ ص٨٨٧ وما بعدها). أو أعمال مكتب تنسيق التّعريب، التّابع للمنظمة العربية للتربية والثّقافة والعلوم، في اختيار المصطلحات العلمية ووضعها وقد فصّل توصياته ووزّعها على ثمانية عشر مبدأ.. لذلك لن نطيل في عرض الأمر.

٤٥. كسحب قانون اللّغة الطّبيعي ومفاهيم اللّسانيات على اللّغة البصرية.

٤٦. المبدأ الثّاني من توصيات ندوة توحيد منهجيات وضع المصطلح العلمي العربي التي نظمها مكتب تنسيق التعريب في الرباط ١٩٨١.